المصادر الكلاسيكية:

أما الأخبار الواردة في المصادر الكلاسيكية فتأتي في مقدمتها أخبار «هيرودوتس» (في حدود 480ـ425ق.م) الملقب بأبي التاريخ. وكان أول من استعمل مصطلح «هستوريا» (Historia) للتأريخ وأصل كلمة تاريخ في معظم اللغات الأوروبية. ومن ناحية موضوعنا كان تأريخ هيرودوتس أقدم الكتب التأريخية، على أن الإفادة من أخباره عن أحوال العراق القديم لا تتم إلا من بعد نقدها، ويدخل في ذلك التعرف على شخصيته وطريقة روايته للأخبار والحوادث، فهو مولع بسرد القصص والحكايات والأساطير خالطاً إياها في كثير من الأحايين بالأخبار التأريخية بدون أن ينبه على الحد الفاصل ما بين الاثنين. كما توجد شكوك في أن هيرودوتس قد زار في الواقع بلاد بابل، بل إن الأخبار التي ذكرها عنها استقاها بالدرجة الأولى من مشاهدين آخرين، فقد ورد فيها اضطراب في الوصف مثل تسميته لبلاد بابل آشور، مع أن المصطلحين كانا معروفين لدى اليونان. كما وردت مبالغات في وصف مدينة «بابل» في قياس أسوارها وبعض أبنيتها. ومع كل هذه الهنات يجد القارئ لأخبار هيرودوتس عن العراق القديم[1] طرائف ممتعة، في وصف بعض مدنه وأنهاره، ولا سيما مدينة «بابل» في العهد الفارسي الأخميني (539ـ331ق.م) حيث كانت معابدها وبرجها الشهير وقصورها لا تزال قائمة.

---

(1) سمى هيرودوتس الأجزاء المتضمنة مؤلفه في التأريخ، وعددها تسعة أجزاء، بأسماء الآلهات أو الحوريات الخاصة بالموسيقى والغناء والشعر والتأريخ، وعددهن تسع آلهات (Muses) بحسب الأساطير اليونانية. ويجد القارئ الأخبار الخاصة ببلاد ما بين النهرين في الجزء الأول المسمى باسم آلهة التأريخ «كيلو» (Clio). وقد ترجم تأريخ هيرودوتس عدة ترجمات إلى اللغات الأوروبية المختلفة، ومنها ترجمة «جورج رولنصن»:

G. Rawlinson, *The Hidtory of Herodotus* (Every Man's Library, 1910).

وعن هيرودوتس وتأريخه بوجه عام نختار من الدراسات الكثيرة:

J. L. Myres, *Herodotus, Father of History* (1953).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ونختتم هذا العرض الموجز بالتنويه بالمؤرخين الآراميين (السريان) من أمثال «ثيودور برخوني» (893م) الذي ذكر ثبتاً بأسماء ملوك بابل، وكذلك الأخبار الطريفة التي وردت في كتب المؤرخين والبلدانيين العرب، ولا سيما أحوال العراق في عهوده الأخيرة وبالأخص العصر الساساني (7/ 226 ـ 637م) حيث تكون الأخبار التاريخية مما يعتمد عليها لقرب العهد.

أخبار الرحالة والسياح:

قبل أن تبدأ التحريات والتنقيبات الفعلية عن بقايا حضارة وادي الرافدين منذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ الغرب يتعرف على أحوال العراق وبلدان الشرق الأدنى بوجه عام وعلى البقايا الأثرية فيها عن طريق أخبار الرحالة الأوروبيين الذين شرعوا يؤمون الشرق منذ القرن الثاني عشر الميلادي؛ ويمكن تحديد بداية هذه الرحلات في زيارة السائح اليهودي «بنيامين التطيلي» (1160م)، كما يمكن إنهاء طور الرحلات ببداية أولى تحريات آثارية على أيدي الهواة وقناصل الدول الأجنبية من أمثال «بوتا» و«ليرد» و«رولنصن» منذ عام 3/ 1842 وبالنسبة إلى الموضوع الذي بين أيدينا لا يخفى ما لأثر مثل أولئك الرحالة والسياح في جعل العالم المتمدن يطلع على بقايا حضارات الشرق القديم وآثاره، وإثارة الرغبة في القوم لمعرفة ماضي هذا الشرق، لا سيما وأن كثيراً من مدنه القديمة ذات صلة وثيقة بأخبار التوراة وبتأريخ الديانتين العبرانية والمسيحية، بالإضافة إلى الأطماع السياسية والاقتصادية. وسنرى مما سنوجزه عن أخبار أولئك السياح كيف أن بعضهم نقل إلى أوروبا نماذج من آثار العراق، من بينها تلك الكتابة الغريبة التي سميت بعدئذٍ بالكتابة المسمارية؛ كل هذا وغيره مهد السبيل للشروع بالتنقيبات الفعلية وحل رموز الخط المسماري في منتصف القرن الماضي. ولذلك فيحسن أن نورد نبذاً عن مشاهير أولئك الرحالة والسياح والتنويه بإسهام المشهورين منهم في تعريف مدن العراق وآثاره إلى العالم الحديث.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بنيامين التطيلي:

يرجح أن يكون «بنيامين» التطيلي[1] الذي سبق ذكره أول سائح أمَّ العراق من الغرب (اسبانية) في العام 1160م، وكانت زيارته في زمن الخليفة العباسي المقتفي بالله (530 - 555هـ/ 1160 - 1170م) وخلافة المستنجد بالله (555 - 566هـ). وسلك في رحلته طريق إيطاليا واليونان وقبرص ثم فلسطين وانتهى به المطاف إلى العراق وبلاد فارس، وقد خصص مذكراته بالدرجة الأولى لوصف أحوال الجاليات اليهودية في الأقطار التي زارها ولا سيما يهود العراق. وإلى هذا وصف ما شاهده من أطلال بعض المدن القديمة مثل نينوى وبابل، وعين موقع المدينة الأولى بالنسبة إلى الموصل، وزار بقايا بابل التي قال عنها إنها تمتد مسافة ثلاثة أميال، ووصف الخرائب التي سمّاها قصر «نبوخذ نصر»، وأكد أنه شاهد «برج» بابل المشهور، وارتقى السلالم الملتوية التي يرقى بها إلى القمة، وفسّر ما شاهده من بقايا الآجر المنصهر (صخريج) بأنها من أثر صاعقة ضربت البرج. إن هذا الوصف ينطبق على بقايا البرج المسمى «برس نمرود» (بورسبا القديمة جنوب بابل بنحو 20كم) وليس على برج بابل. وعندما ترجمت رحلته إلى الفرنسية والإنجليزية أثارت الاهتمام بين المؤرخين في أوروبا، ووضعت في متناول أيديهم وصفاً لشاهد عيان عن بقايا مدن يعرفون أسماءها وطرفاً من أخبارها مما ورد عنها في التوراة وأخبار المؤرخين اليونان والرومان.

بترو ديلا فاله:

وتعاقب من بعد «بنيامين» التطيلي في زيارة العراق جملة رحالة وسياح كتبوا عنه، نذكر من مشاهيرهم العالم الطبيعي والطبيب الألماني «راوولف» (Rauwolf) من أهل القرن السادس عشر.

---

(1) «بنيامين» بن يوحنا «رابي» تطيلة (Tudela) في مملكة «نافار» (Navarre) ولم تنشر أخبار رحلته إلا في القرن السادس عشر حيث ترجمت من بعد ذلك إلى اللغات الأوروبية المختلفة، وترجمها إلى العربية الأستاذ «عزرا حداد».

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

والمصريون الأقدمون وكذلك المعاملات وشؤون الحياة المختلفة التي دونها الناس على ألواح الطين والحجر وورق البردى وعلى الجلود والمعادن. وقد جاءتنا من هذه الوثائق نماذج كثيرة من مختلف العهود. وكثرت المصادر المادية في العصور التأريخية وتنوعت فشملت فن العمارة كالمباني العامة من قصور ومعابد وبيوت وكذلك الآثار الفنية كالمنحوتات والصور إلى غير ما هنالك من آثار الفن التي يجدها المنقبون في مدن العراق القديمة الدارسة وغيره من أقطار الشرق الأدنى.

ولكن لم يستطع الباحثون أن يقفوا على هذه الآثار والبقايا بيسر وسهولة، كما قد يتبادر إلى الذهن، لأن جميعها تقريباً كان مطموراً تحت التراب في باطن التلول والأطلال الكثيرة التي نشاهدها الآن منبثَّة في جميع أنحاء العراق والتي كانت مدناً ازدهرت في الأزمان الخوالي، وفي باطن الكهوف وشطآن الأنهار في حالة العصور الحجرية القديمة. وقد تطلب استخراج هذه الآثار جهوداً مادية وعلمية كبيرة، وتطلب فهمها ودرسها جهوداً علمية أخرى. وصارت كيفية استخراج الآثار بالطرق العلمية علماً خاصاً هو التنقيب توفر على الاختصاص به جماعة مخصوصة من العلماء، وسنوجز الكلام على تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية في القسم التالي من هذا الفصل.

ثانياً: «تأريخ التنقيبات والتحريات الآثارية»:

1 ـ مصادرنا عن تأريخ العراق القديم مما قبل القرن التاسع عشر:

نوَّهنا في القسم الأول من هذا الموضوع كيف أن التنقيبات والتحريات الآثارية هي الوسائل العلمية التي ينبغي للمؤرخ والباحث في حضارة وادي الرافدين أن يعتمد عليها لأنها، كما ذكرنا، هي التي تمد الباحث بمصادر بحثه الأصلية، سواء كانت وثائق كتابية أم البقايا الأثرية المادية على اختلاف أنواعها. على أن التنقيب والكشف عن مخلفات حضارة وادي الرافدين لم يبدأ في العصر الحديث إلا منذ منتصف القرن الماضي. أما ما قبل هذا الزمن

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

فلم يكن ليعرف عن مدنيات الشرق والعراق القديمة سوى أخبار ونتف متفرقة ورد بعضها في الكتب المقدسة ولا سيما أخبار التوراة، وروايات المؤرخين الكلاسيكيين (اليونان والرومان) من أمثال هيرودوتس وزنيفون وغيرهما ممن سنذكرهم بعد قليل.

وتأتي التوراة في مقدمة مصادرنا عن العراق القديم قبل الكشف عن آثاره عن طريق التنقيبات، فقد حوت أسفارها طائفة من الأخبار عن بلاد ما بين النهرين وتأريخها، بنتيجة التأثيرات الحضارية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين في العبرانيين الذين اقتبسوا منها أشياء كثيرة في حقل الأساطير والقصص والمعارف فضمنوها في توراتهم منذ بدء الخليقة. وإلى هذه التأثيرات الحضارية نشأت بين العبرانيين وسكان وادي الرافدين القدماء صلات مباشرة، اتسم معظمها بالعداء والبغض من جراء الضربات الشديدة التي وجهها الملوك الآشوريون على العبرانيين، ولا سيما في عهد الأمبراطورية الآشورية الأخيرة، مما جعل مدوني أسفار التوراة يفردون فصولاً مطولة عن تلك العلاقات (راجع بوجه خاص سفر الملوك الأول والثاني وأسفار الأنبياء)، وكذلك يقال في علاقات اليهود بالأمبراطورية البابلية الكلدانية، ولا سيما الملك «نبوخذ نصر» الثاني المشهور (605 ـ 562ق.م) الذي أزال الدولة اليهودية من الوجود ودمر أورشليم، وكان صاحب السبي المشهور (596 و586ق.م)، وما استتبع ذلك السبي من بقاء اليهود في بلاد بابل ردحاً من الزمن فازدادت تأثيرات حضارة وادي الرافدين فيهم، بحيث إن أسفار التوراة التي جاءت إلينا في شكلها الأخير إنما تمّ تدوينها في بلاد بابل (ما بين القرنين السادس والخامس ق.م) ودون التلمود اليهودي المعروف بالتلمود البابلي في بلاد بابل (القرن السادس الميلادي).

ومع أننا الآن في وضع يمتاز بوفرة المصادر عن حضارة وادي الرافدين بيد أن أخبار التوراة لا تزال من المصادر التي يمكن الرجوع إليها بشرط تطبيق أصول النقد التأريخي عليها، والنظر بعين الاعتبار إلى تعصب مدوني التوراة وتحيزهم والتشهير بأعدائهم من ملوك بابل وآشور.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner